

مبادئ النظرية التوليدية والتحويلية:

*ملياني محمد

إنّ وجود المدرستين-الذهنية والسلوكية- بوصفهما تمثيلا فكريا جديدا، هيا المناخ الفكري الملائم لنوام تشومسكي (Avram Noam Chomsky)¹ لتقديم نظريته الجديدة التي أحدثت ثورة فكرية في مجال الدراسات اللسانية.

وفي ظل هذه النظرية الثورية عرف النصف الثاني من القرن العشرين تغيرا جذريا في المسار التطوري للسانيات بفضل مؤلفه الشهير: "البنى التركيبية" (Structures Syntaxiques) الصادر سنة 1957م، والذي كان له أثر مباشر في إنماء الدراسة التركيبية، فوضع كفاءات خاصة لدراسة الجملة وتحليل بنيتها في حوض معطيات نظريته التوليدية والتحويلية، القائمة على علاقة عناصر البنية التركيبية من جهة، وعلى الخصائص الكامنة في العقل البشري من جهة أخرى، التي اتخذ منها مرتكزا هاما أشبع به البنية التركيبية بحثا ودراسة.

وبمجرد ما تبلورت مفاهيم النظرية الجديدة، واتضح معالمها بفضل ما حظيت به من فيض غزير من الدراسات التطبيقية، حتى أخذت مفاهيم المدرسة التوزيعية التي أسسها أستاذ تشومسكي زليغ هاريس (Zillig Harris)² تتراجع وتتنازل عن مقعد الصدارة، الأمر الذي سمح للمفاهيم الجديدة بأن تحل محلها.

وشهدت بداية سنة 1965م صدور كتاب آخر جديد لتشومسكي بعنوان: "مظاهر النظرية التركيبية" (Aspects de la théorie syntaxiques)، أي بعد مرور فترة زمنية غير قليلة على صدور الكتاب الأول، وخلالها استطاع تشومسكي أن يفيد من الدراسات التي قام بها كاتز (Katz) و(Fodor) ، (1963)، وكاتز وبوستال (Katz et Postal) (1964) ويطور مفاهيم نظريته الجديدة ويدخل عليها تعديلات متعدّدة من خلال نقد ذاتي متواصل، فبلور فكرة جديدة أغفلها في كتاب "البنى التركيبية"، وهي تأكيدها على دور المعنى في التراكيب اللغوية.

وفي الحقيقة أن نظرية تشومسكي ثورة في مجال البحث اللساني، إذ أحدثت قطيعة منهجية في الواقع مع الدراسة التوزيعية التي اكتفت بالوصف السطحي للتراكيب اللغوية كما هي منطوقة بالفعل، وتحليلها بطريقة شكلية، الأمر الذي جعلها تغفل تلك الشحنات الدلالية الكامنة وراء هذه التراكيب، وهكذا يكون تشومسكي قد خلص اللسانيات الأمريكية من "القهر البلومفيلدي الذي ساد الأجيال السابقة"، أي منذ أن صدر مؤلفه وهو يشكل مرجعية أساسية دامت تقريبا من سنة 1933م إلى سنة 1957م، وبقيت أعمال اللسانيين تحوم من حولها دون أن

¹ أد ملياني محمد، كلية الأدب والفنون، جامعة وهران 1-أحمد بن بلة.

تتعداها، وأهم ما ميّز جهد تشومسكي أنّه أعاد الاعتبار للقدرة الذهنية المعروفة في الفلسفة العقلية الديكارتية، التي لم تلق اهتماما في الدّراسات الوصفية.

وبعد الثورة التي أحدثتها النظرية التوليدية والتحويلية في حقل اللسانيات، راحت تستقطب اهتمام الباحثين وعنايتهم، لكن الأمر الذي ينبغي التنبيه إليه هو أن هذا الاستقطاب لم يأت دفعة واحدة، وإنما تحقق بعد أن قطع تشومسكي مراحل هامة اقتضتها طبيعة النظرية المتجددة، والتي توزعت كالتالي:

- المرحلة الأولى: ويمثلها صدور كتاب "البنى التركيبية"، باعتباره بداية المرحلة التأسيسية وتنعت بالنظرية الكلاسيكية.

- المرحلة الثانية: ويمثلها صدور كتاب "مظاهر النظرية التركيبية"، وتنعت بالنظرية النموذجية.

- المرحلة الثالثة: وتمثلها الأعمال التي نشرها تشومسكي في كتاب "دراسات الدلالة في القواعد التوليدية"، وذلك سنة 1972م، وعرفت بالنظرية النموذجية الموسعة.³

وإذا كان تشومسكي قد رفض المنهج البومفيلدي، بل حاربه بوصفه منهجا لا يتحرك إلا على السطح، وحصرا لاهتمامه في وصف الأشكال اللغوية، بخضوعه لقوانين حتمية معينة، فيصبح الإنسان في ظلها آلة جامدة تتصرف فيه من منطلق المثير والاستجابة كما أنّه رفض في الوقت نفسه أن يتجرد الإنسان من إنسانيته، وينفصل عن موقفه الفكري وقدراته الفردية، ومن هنا جاءت النظرية التوليدية والتحويلية لتفسير وقائع اللغة اعتمادا على العقل والقدرة والوعي والفطرة بوصفها قدرات داخلية مختصة بالإنسان.⁴

وباستحضار ما سبق ندرك أن مدرسة بلومفيلد تركز على رصد العناصر اللغوية من خلال تحليل الحدث الكلامي إلى المكونات المباشرة لاستخراج القيم التوزيعية لكل العناصر من حيث اتصالها وانفصالها.

لكن انتقد تشومسكي منهج هذه المدرسة نقدا عنيفا، وهو أحد التلاميذ الذي كانت كتاباته - في وقت سابق - لا تتعدى حدودها، فرفض مؤسس النظرية الجديدة التحليل الآلي الشكلي للكلام ورصد العناصر اللغوية من خلال تحليل التركيب اللغوي، لأنه إجراء يصاحبه إقصاء تعسفي لقوى أعمق وأبعد تكمن وراء الحدث الكلامي، وهو ما ينعى بالجانب الإبداعي، لأن "مقدرة التكلم قائمة، بالذات، على وجود آلية عقلية بالغة التعقيد ضمنها، مما يتيح لنا القول إن اللغة، من هذا المنظور، انعكاس للعقل"⁵.

أضف إلى ذلك أن اللغة كما يؤكد ديكرت هي الميزة الحقيقية التي تفرق بين الإنسان والحيوان⁶، وفي ضوء هذا الفهم يمكن اعتبار اللغة الإنسانية نتاجا وفعل صنع في الوقت نفسه، وعملا عقليا يتجدد باستمرار.⁷

وتقوم فكرة الإبداع في النظرية الذهنية على أن المتكلم لا يكتفي بإعادة الجمل التي سمعها من قبل أو ألفها، وإنما يخلق جملاً جديدة لم يسمعها من قبل، ويبدو أن هذا هو المظهر الأساسي للكفاية اللغوية الموجود بالقوة في دماغ الإنسان، وهو ما حمل تشومسكي على التمييز بين نوعين من الإبداع:

أ- إبداع يبذل القواعد النحوية ويمثل الموجود بالفعل.

ب- وإبداع يمكننا من إنتاج عدد لا متناه من الجمل من خلال تطبيق القواعد النحوية. وفي ضوء هذا التمييز يتبين لنا أن الموجود بالقوة يتشكل من مجموعة متناهية، أي مجموعة مكونة من عدد محدود من القوانين وقادرة في الوقت نفسه على إنشاء عدد لا محدود من الجمل.⁸

ومن الطبيعي في رحاب هذا التصور أن تعرج النظرية الذهنية من منهج يتوخى الوصف الشكلي، ويتحرك على مستوى السطح ولا يتعداه، إلى منهج ذهني ينهض على اعتبار الحدث الكلامي حدثاً متجدداً يتصف بالابتكار، ممّا يقتضي من المحلل اللساني أن يعلّله ويفسّره بدلاً من أن يصفه، وذلك من خلال ما توفره اللغة للإنسان من وسائل لازمة لكي يعبر بصورة غير متناهية عن أفكار متعددة.⁹

ويبحث اللسانيون اليوم في اللغة الطبيعية من خلال الكفاية اللغوية القائمة على تلك الآليات التي يوظفها المتكلم بغرض إنتاج الحدث الكلامي، الأمر الذي استدعى ظهور مجموعة من التوجهات النظرية والمنهجية التي توصلت إلى صياغة قواعد يمكن القول إنها استقرت أو تكاد، وقد تدرجت هذه التوجهات المنهجية من الوصف الشكلي إلى التفسير الدلالي، وقد تم خلال هذا التدرج وضع وصل مفاهيم علمية للملاسة البنية التركيبية.

ثنائية الكفاية اللغوية والأداء الكلامي:

لقد بلغت النظرية التوليدية والتحويلية أوجها في التطور، ويظهر بوضوح في مبادئها ومجال تطبيقها في مجال المد النظري الكثيف الذي توافر لديها، لكن الذي أصبح ملفتاً للانتباه في هذه النظرية هو أنها أضحت تنعت بالنظرية المعيار (La théorie standard)¹⁰ وتمييز بين الكفاية اللغوية (Compétence) والأداء اللغوي (Performance)، وتفرق بين مفهوم أصولية الجملة، ومفهوم تقبُّل الجملة، أضف إلى ذلك التمييز بين البنية العميقة والبنية السطحية.¹¹

وإذا كان فاردينان دي سوسير (Ferdinand De Saussure) بوصفه الأب الروحي للدرس اللساني الحديث، قد اعتمد في منهجه على ثنائية أساسية وميز بينها وهي: اللسان والكلام، فإن تشومسكي قد استحدث مفهومين هاميين في نظريته وهما: الكفاية اللغوية والأداء الكلامي، ولجأ إلى هذه الثنائية لتأصيل النظرية منهجياً على خطة دي سوسير.

والمتبع لخريطة الدرس اللساني الحديث والمعاصر، يقف على الفرق بين تصوّري العالمين. فدي سوسير يرى الكفاية اللغوية التي تقابل مفهوم اللسان موجودة بالقوة في أذهان الجماعة بوصفها الذاكرة المشتركة بينهم، ولا

يستطيع الفرد أن يخالفه أو يغير فيه، لأنه وُجِدَ بفضل عقد بين الجماعة والفرد، ولذا فإن تحليل اللسان لا يلزم البحث في المجال الذي يشكله الفرد الناطق، في حين أن تشومسكي يرى أن الكفاية اللغوية موجودة في عقل الفرد، وتعكس قدراته اللغوية في صنع الأفعال اللغوية بوصفها عملية ابتكار، وعليه فالكفاية اللغوية عنده لا تشكل مستودعا للصور السمعية، وإنما تقوم على قدرة نفسية خلاقة عند الفرد الناطق.¹²

عني تشومسكي بدراسة القدرة اللغوية بوصفها إحدى الملكات العقلية، وقدم مجموعة من الافتراضات الجوهرية ومن أهمها أن كل فرد يعرف لغته معرفة جيدة، وأنها ممثلة في ذهنه، وأن هذا التمثيل كامن في ذهنه في صورة قواعد النحو والصرف والنظام الصوتي والنظام الدلالي التي تمكن المتكلم من فهم اللغة وإنتاجها، ولهذا ترسخ لدى اللسانيين أن القدرة اللغوية ممثلة ذهنيا في صورة قواعد مخزونة في حالة سكون.

أ- الكفاية اللغوية¹³:

وتحدد بأنها المعرفة الضمنية بقواعد اللغة التي يمتلكها المتكلم- المستمع المثالي، أو كما فسرها تشومسكي: "معرفة المتكلم- المستمع المثالي للغته"،¹⁴ فالكفاية إذن نظام عقلي باطني كامن خلف الأداء الكلامي؛ لأنه يرتبط بظروف المتكلم، ولذا فهو غير قابل للدراسة التجريبية، و"الوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا النظام ودراسته هي الاستبطان (Introspection) إذ يساعدنا على إصدار أحكام على كل الجمل من حيث صحتها النحوية ومقبوليتها".¹⁵

ب- الأداء الكلامي:

وهو الاستعمال الآني لهذه المعرفة في عملية إنتاج الكلام،¹⁶ أي من المتكلم، فيصوغ تراكيبه وفقا لتنظيم القواعد الضمنية بهدف التواصل، والأداء الكلامي في الحقيقة هو حصيلة عمل الكفاية اللغوية "إن الأداء يعكس ما يجري في العمق من عمليات لغوية، أي يعكس الكفاية اللغوية، وعلى هذا الأساس فإن (بنية السطح) تقدم لنا التفسير الصوتي للغة ما، أما الكفاية (بنية عميقة) فتقدم لنا التفسير الدلالي".¹⁷

ويتمثل فحوى القول السابق في كون الحدث اللساني الذي يمكن ملاحظته في الأداء الكلامي الذي يمكن ملاحظته، يكمن في ذهن المتكلم، وضمن الكفاية اللغوية بوصفها تنظيما محركا يسهم في تحديد وتوجيه هذا الفعل الكلامي، من خلال تلك الآليات التي يوظفها المتكلم بغرض إنتاج الكلام في شكل أداء لغوي قادر على إنجاز عملية التواصل، ولتوضيح ذلك نستعين بهذه الخطاطة:

الأداء اللغوي ← البنية السطحية ← التفسير الصوتي للجملة.

الكفاية اللغوية ← البنية العميقة ← التفسير الدلالي للجملة.

فالكفاية اللغوية هي المعرفة الضمنية بقواعد اللغة، وحالة لا شعورية تكمن داخل دماغ المتكلم بلغته، وتجسد الأداء الكلامي الذي يعدّ عملية آنية خاصة بالمتكلم، فيصوغ كلامه في تتابع من الجمل وفق القواعد الضمنية.

ولتوضيح ذلك، نضع جدولاً نقارن فيه بين مفهومي الكفاية اللغوية والأداء اللغوي:

الأداء اللغوي	الكفاية اللغوية
استعمال القدرة اللغوية في موقف معين بواسطة متكلم معين. والأداء يتأثر بالظروف المصاحبة للكلام كالتعب والضوضاء والدواعي الأسلوبية والجمالية للكلام.	الكفاية هي القواعد التي يمتلكها الشخص عن لغته وهي إما قوالب وقدرات فطرية يولد الشخص مزوداً بها أو قواعد صوتية ونحوية اكتسبها من خلال احتكاكه بأفراد مجتمع كلامي معين.

ويرى تشومسكي أن الكفاية اللغوية تتكون لدى الفرد في سن مبكرة، فتجعله قادراً على إنتاج عدد لا نهائي من الجمل، ويعود هذا في نظره إلى القدرة الفطرية (Compétence Innée) التي يولد بها الطفل والتي تسمح له بتعلم لغة من اللغات، وامتلاك نظامها في زمن قياسي "فمن الواضح جداً أنّ للجمل معنى خاصاً تحدده القاعدة اللغوية، وأنّ كل من يمتلك لغة معينة قد اكتسب ذاته وبصورة ما، تنظيم قواعد تحدد الشكل الصوتي للجملة ومحتواها الدلالي الخاص. فهذا الإنسان قد طوّر ذاته ما نسميه بالكفاية اللغوية الخاصة"¹⁸.

وتنسحب حقيقة القدرة الفطرية على العناصر المشتركة بين جميع اللغات بفعل تفاعلها مع المادة اللغوية، وهي ما نعتمها صاحب النظرية الذهنية بالكليات اللغوية (Linguistiques Universelles)، ويهدف تحقيق القواعد الكلية (Grammaire Universelle) أسندت مهمة اكتشاف هذه الكليات ووصفها إلى اللغوي.¹⁹

ويقول تشومسكي في هذا الشأن: "إنّ تنوع اللغات يكشف عن حدّ أعلى فيما يتعلق بوفرة الميزات التي يمكن إلصاقها بالقواعد الكلية وبنوعيتها، في حين أن ضرورة تفسير عملية اكتساب القواعد الخاصة تكشف عن حد أدنى، وبين هذين الحدين تقع نظرية التعلم الذي يقوم به الإنسان في مجال اللغة"²⁰، ويتبين في ضوء هذا الفهم أن دراسة الكليات اللغوية تتوافق مع دراسة طبيعة قدرات الإنسان العقلية.²¹

وعرّج منهج النظرية التوليدية والتحويلية باللغة من مستوى الوصف إلى التفسير ورفض دراسة البنى التركيبية من الخارج اعتماداً على المظهر المنطوق بوصفه مستوى مغلقاً لأن هناك كثيراً من التراكيب تحمل معانٍ مختلفة، لا يميز الشكل الخارجي بينها، الأمر الذي جعله يتوصل إلى أن كل بنية ظاهرة مستمدة من بنية باطنية عقلية تفسرها وترجمها قواعد التحويل (Transformational Rules) باعتبارها شروطاً ضرورية لتعلم اللغة، ويتضح لنا ممّا سبق أن للتركيب اللغوي الأساسي بنيتين: بنية سطحية (Structure de surface) وأخرى عميقة (Structure profonde).

أ- البنية السطحية:

وهي نتاج قواعد النحو التوليدي، وتمثل التركيب اللغوي في شكله الصوتي النهائي، كما هو مستعمل في عملية التواصل، وينبني على تتابع الأصوات المنطوقة فعلاً، ومن الناحية الدلالية فهي انعكاس للأفكار الكامنة في ذهن المتكلم بلغته.

ب- البنية العميقة:

وتمثل التفسير الدلالي الذي تنبثق منه البنية السطحية في نطاق سلسلة من الإجراءات التحويلية التي تتحرك داخلياً من العمق إلى السطح مع مراعاة القوانين التي تحقق التحول، وهذا ما يعكس أشكال الفكر الإنساني.

22

وهكذا يتبين لنا أن العلاقة بين البنيتين-السطحية والعميقة- علاقة وطيدة لا يمكن الفصل بينهما، ويقتضي وجود إحداهما وجود الأخرى، لأن البنية السطحية انعكاس للبنية العميقة، التي تعبر عن الفكر باعتباره مجموعة من الدلالات والتصورات، ولا يمكن لها أن تظهر إلا في أشكال بني سطحية.²³

إن منهج تشومسكي بوصفه أحدث المناهج اللغوية الحديثة، يركز على نظام من القواعد يفسّر التراكيب التي تكوّن اللغة الطبيعية، ويتوزع هذا النظام من القواعد على ثلاثة مكونات تشكل أصول اللغة وترتبط بين

مستوياتها: الصوتية والتركيبية والدلالية، "ولبلوغ هذه الغاية كان على النحو الكامل للغة معينة، بالمعنى الفني الذي يعطيه تشومسكي لهذه الكلمة، أن يتضمن ثلاثة أقسام"،²⁴ وهي:

1

- المكون التركيبي (Composant Syntaxique):

وهو المكوّن التوليدي الأساس في القواعد التوليدية والتحويلية، يولد مجموعة بني تركيبية غير متناهية، ويعتبر المكون الوحيد الذي يصف بنية الجملة العميقة التي تمثل التفسير الدلالي ويعدد عناصرها المكونة،²⁵ ويتشكل من مكونين اثنين هما: مكون الأساس (Composant de base) والمكوّن التحويلي (Composant transformationnel).

أ- المكوّن الأساس:

وهو يحتوي على مجموعة قواعد بناء²⁶ أو قواعد إعادة الكتابة،²⁷ وعلى معجم يشتمل على المداخل المعجمية، ويضمّ كل مدخل معجمي سمات تركيبية وصوتية ودلالية، تولد قواعد التكوين مشيراً ركنياً يرتد إلى كل جملة، وتستبدل رموزه أينما ظهرت بالمداخل المعجمية الملائمة، وهذا الاستبدال يخضع إلى ضوابط محددة وفقاً لسمات المداخل المعجمية وهكذا يتم الحصول على الجملة في البنية العميقة.

ويمكننا تمثيل قواعد إعادة الكتابة بالمشير الركني التالي:²⁸

ركن الإسناد + ركن التكملة	← جملة
ركن فعلي + ركن اسمي	← ركن الإسناد
زمن + حدث	← ركن فعلي
تعريف + اسم	← ركن اسمي
ركن حرفي	← ركن التكملة
حرف + ركن اسمي	← ركن حرفي
تعريف + اسم	← ركن اسمي

ب- المكوّن التحويلي:

ويحتوي على قواعد معينة تساعد على تحويل البنية العميقة إلى بنية سطحية بواسطة قواعد إعادة الكتابة، والممكن تحليلها إلى مشيرات ركنية، وذلك بإخضاع البنية العميقة إلى عدة تحويلات من حذف وزيادة وتقديم وتأخير حتى تصل بها إلى شكلها الفونولوجي الذي تظهر به في البنية السطحية.²⁹

والذي يعيننا هنا هو أن التحويل في النظرية التوليدية والتحويلية يقوم على تنظيم الجمل إلى مجموعات فرعية من جهة ويربطها بصورها الذهنية العميقة من جهة أخرى، الأمر الذي يجعل كل صورة تقدم اشتقاقاً لشكلين ظاهرين أو أكثر.³⁰

وإذا كان النحو العربي يركز في كثير من المسائل التطبيقية على فكرة الوجوب والجواز، فإن قواعد التوليدية والتحويلية تنقسم أيضاً إلى قسمين: قواعد تحويلية وجوبية وقواعد تحويلية جوازية، ويمكن لنا أن نقف على مثالين لتوضيح ذلك:

* خَرَجْتُ فَإِذَا الْعَدُوُّ.

وبعد إجراء قاعدة تحويلية جوازية على هذا المثال الذي اعتوره حذف أحد العناصر الإسنادية، توصلنا إلى تقدير العنصر المحذوف (المسند) في البنية العميقة ب: "كامن".

كما يمكننا إجراء قاعدة تحويلية وجوبية على المتتالية الركنية التالية:

* لَوْلَا الْعَدْلُ لَفَسَدَتِ الرَّعِيَّةُ.

نلاحظ حذف (المسند) المقدر في البنية العميقة ب: "موجود"، وضابط القاعدة التحويلية الوجوبية في المثال السابق هو حذف المسند بعد لولا وجوبا شريطة أن يدل على وجود مطلق وفي ضوء هذه القاعدة يتم توزيع عناصر المتتالية كما يلي:

لولا + المسند إليه + (...) ← مسند محذوف وجوبا.

2- المكوّن الدلالي (Composant Sémantique):

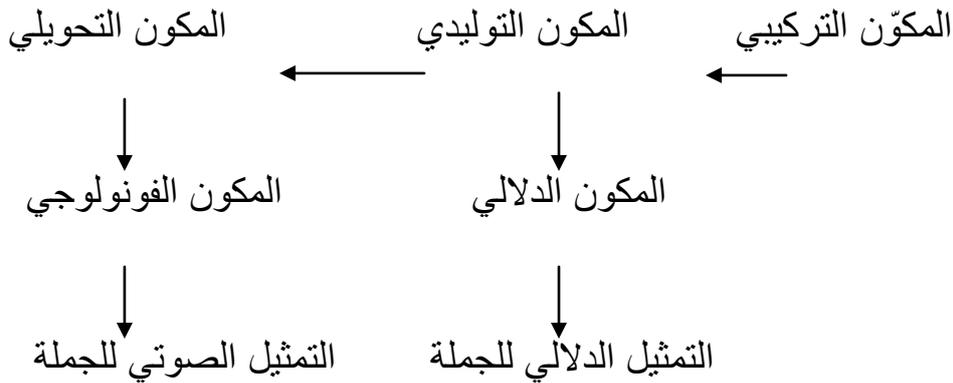
أهملت الدراسات اللسانية التوزيعية هذا المكون، وتفتنت له المدرسة التوليدية والتحويلية عندما بلغت نضجها مع صدور مؤلف تشومسكي الموسوم ب: "مظاهر النظرية التركيبية" سنة 1965م ، إذ استدركت ما أغفل في مجال التفسير الدلالي للبنى التركيبية في سنة 1957م وتمكنت من ردم الفجوة المنهجية التي أعاقت جهود اللسانيين في استكشاف العلاقات التركيبية والدلالية للغات الإنسانية، "فقد غدت الأهداف أكبر طموحا: تفسير كل العلاقات اللغوية القائمة في اللغة بين نظام الأصوات ونظام الدلالات"³¹.

ويقوم هذا المكوّن بتخصيص معنى لكل تركيب، انطلاقا من مدلول الكلمة، ويتناول التراكيب التي يولدها المكوّن التركيبي ويلتمس تحليلها من الناحية الدلالية، لذلك يعتبر المكوّن الدلالي مكونا تفسيريا، إذ يربط بين معنى الكلمات وبين التمثيل الدلالي العائد إلى البنى العميقة.

3- المكوّن الفونولوجي (Composant Phonologique):

يهتم هذا المكوّن بشرح البنية الصوتية للجمل التي ولدها المكون التركيبي، ويفسرها تفسيرا قائما على قواعد فونولوجية خاصة بكل لغة.³²

ويمكن أن نوضح أكثر بالشكل العام التالي:



وفي ضوء ما سلف يتبيّن أن النظرية التوليدية والتحويلية تنطلق أساسا من القواعد التي تربط ما بين الأصوات الكلامية ومعانها الدلالية بهدف تفسير اللّغة المنجزة فعلا، ومعرفة مدى إدراك المتكلم لها، كما أنها لا

تتعامل مع الحقائق العلمية في المجال اللغوي من أجلها في ذاتها، بل بوصفها دلالة على وجود مبادئ تنظيمية معينة في العقل البشري تعمل على أن يستعمل المتكلم لغته بإبداع.³³

فهذه المدرسة تعتمد إذن على العقل البشري في توليد الجمل على أساس أُنْهَارَكْن من بنائها النظري، وجل همها ينحصر في استكشاف القدرة الكامنة وراء البنية التركيبية، والوصول إلى الكيفية التي ينتج بها فكر الإنسان اللغة وفق قواعد محددة، يوجهها الحدس اللغوي (Intuition)، ويتحكم فيها في ضوء المعطيات الجديدة للنظرية التي أولته اهتماما خاصا؛ لأن الحدس ليس عنصرا ثانويا في الدرس اللغوي، وإنما هو عنصر جوهري.

وما هو مسلم به في اعتقاد هذه النظرية هو أن هناك أصولا عميقة في الإنسان جعلته مؤهلا سلفا لاستقبال اللغة وتعلمها وترجمتها، الأمر الذي يمكنه من امتلاك القدرة على نطق عدد من الجمل لم ينطقها من قبل، وأن يفهم كلاما لم يسبق له أن سمعه من قبل.

ومن هذه الناحية ينبغي على اللساني ألا يهمل قدرة الإنسان على اللغة، لأن توجيه العناية والاهتمام إلى البنية السطحية لا يجلب شيئا مادام لب الطبيعة البشرية يكمن في البنية العميقة التي تمتلك سلطة الكفاية وإزالة اللبس والغموض.

وقد اعتمدت النظرية التوليدية والتحويلية منهجا علميا رياضيا مؤسسا على الدقة المتناهية وعازفا عن المعيارية كغيره من المناهج الغربية الحديثة، غير أنه لم يعر اهتماما للأشكال اللغوية، فراح يتعامل مع كل الأشكال والكيفيات دون اللجوء إلى إبراز المفاضلة بينها، أي إنه يتعامل مع الصيغ والتراكيب بمنأى عن البلاغة والأسلوبية، بحيث لم يفرق بين الكلام الجميل الفني وبين الكلام العادي الاستهلاكي.

وباستحضار ما سبق والتأمل فيه يمكن القول إن المعرفة اللسانية بالإضافة إلى كونها قضية لسانية بالدرجة الأولى، هي مسألة فلسفية-أيضا، فوضع الفرضيات العلمية حول مكّون (الكفاية اللغوية) غير قابل للملاحظة ولا اللمس يقتضي استخدام تركيبية ذهنية تنطلق مما يمكن ملاحظته لتصل إلى ما لا يمكن ملاحظته بهدف التفسير والتعليل، وهذا العمل في الحقيقة من صميم العمل الفلسفي.

وإذا كان النحو التوليدي والتحويلي قادرا على التمثيل للكفاية اللغوية الداخلية التي تمكن المتكلم من فهم اللغة وإنتاجها، وإذا كان قد ترسخ لدى اللسانيين أن الكفاية ممثلة ذهنيا في صورة قواعد معرفية مخزونة، فكيف نفسر هذه الفرضيات من منظور الدراسات اللغوية العربية؟

والإجابة عن هذا السؤال المشروع تقتضي الرجوع إلى الإسهامات اللغوية العربية في هذا المجال، ويبدو أن المجال الفكري الذي تحرك فيه عبد القاهر الجرجاني يتشابه كثيرا مع مبادئ النظرية التوليدية والتحويلية، ولذا سنحاول الكشف عن هذه الفرضيات واستثمارها في ضوء منهج تشومسكي.

هوامش البحث:

- 1- أفرام نوام تشومسكي، لساني أمريكي من عائلة روسية إسرائيلية متطرفة في أفكارها السياسية، ولد في مدينة فيلادلفيا بولاية بنسلفانيا (Pennsylvania) في 1928/12/07 م، ودرس بجامعة الفلسفة واللسانيات والرياضيات، ينظر اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ديوان المطبوعات الجامعية، سنة 2002م، ص. 202
- 2- لساني أمريكي من أصل روسي، ولد سنة 1909م، هاجر إلى الولايات المتحدة، ثم حصل على الجنسية الأمريكية سنة 1921م ويدرس بجامعة بنسلفانيا (Pennsylvanie) منذ سنة 1931م، كان من رواد التيار التوزيقي ثم تأثر بتلميذه تشومسكي والتحق بالمدرسة والتحويلية، من مؤلفاته: "مناهج اللسانيات البنيوية" و"الأبنية الرياضية في اللغة" و"مقالات في اللسانيات البنيوية التحويلية ينظر الأسلوبية والأسلوب: د.عبد السلم المسدي، ص. 255
- 3- ينظر اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ص. 205
- 4- قضايا ألسنية تطبيقية-دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية: د. ميشال زكريا، ط. 1993/1م، دار العلم للملايين-بيروت- ص. 58
- 5- قضايا ألسنية تطبيقية-دراسات لغوية اجتماعية نفسية مع مقارنة تراثية: د. ميشال زكريا، ط. 1993/1م، دار العلم للملايين-بيروت- ص. 58
- 6- ينظر الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية): د. ميشال زكريا، ط. 1406/2هـ/1986م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ص. 25
- 7- ينظر المرجع نفسه ص. 31
- 8- ينظر إسهام في دراسة نظرية تشومسكي: الحبيب اللوزي، ص. 20، و
Noam Chomsky, Structures syntaxiques, traduit de l'Anglais par Michel Brandeau, Edition du Seuil, 1969, p16-17.
- 9- Noam Chomsky, (1965) Aspects of the theory of syntax; Cambridge Mass the M.I.T. Press trad fr Ed.Seuil Paris(1970) p 16.
- 10- ينظر القضايا الأساسية في علم اللغة: كلاوس هيشن، ترجمة الدكتور سعيد حسن بحيرى، ط. 1424/1هـ/2003م، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع-القاهرة-ص. 163
- 11- ينظر مبادئ اللسانيات: د.أحمد محمد قدور، ط. 1419/2هـ/1999م، دار الفكر بدمشق-سورية- ص. 263
- 12- ينظر من الأنماط التحويلية في النحو العربي: د.محمد حماسة عبد اللطيف، ط. 1990/1، مكتبة الخانجي – القاهرة- هامش ص. 15، والألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية): د.ميشال زكريا، د.ط، سنة 1986م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع-بيروت- من ص. 25 إلى 45.
- 13- يقابل مفهوم الكفاية اللغوية في التراث العربي مفهوم الملكة اللسانية وهو أقرب إلى مفهوم تشومسكي من مفهوم اللسان عند سوسير، ينظر الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): د.ميشال زكريا، ط. 1983/1م، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر، بيروت-لبنان- ص. 7
- 14- Noam Chomsky; Aspects de la théorie syntaxique, p 12.

- 15- اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ص 210-211.
- 16- ينظر قضايا ألسنية تطبيقية: د.ميشال زكريا، ص 61.
- 17- مدخل إلى التحليل اللساني-اللفظ، الدلالة، السياق: أ.العربي قلايلية، ديوان المطبوعات الجامعية، ص 60.
- 18- قضايا ألسنية تطبيقية: د.ميشال زكريا، ص 63
- 19- ينظر أصول تراثية في علم اللغة: د.كريم زكي حسام الدين، ط.2/1985م، مكتبة الأنجلو مصرية، ص 70.
- 20- Noam Chomsky, (1975) Reflexions on Language, New York, Pantheon, p 87.
- 21- ينظر قضايا ألسنية تطبيقية: د.ميشال زكريا، ص 70.
- 22- ينظر اللسانيات النشأة والتطور: أحمد مومن، ص 212.
- 23- ينظر مدخل إلى التحليل اللساني: العربي قلايلية، ص 62.
- 24- النحو والدلالة: د. محمد حماسة عبد اللطيف، ص 26.
- 25- ينظر الألسنية التوليدية التحويلية وقواعد اللغة العربية (الجملة البسيطة): د.ميشال زكريا، ص 157.
- 26- يقصد بقواعد البناء الأشكال النحوية التي تحكم الجملة القائمة على العملية الإسنادية.
- 27- ويقصد بها سلسلة من العمليات تنهض على تفرع عناصر قواعد البناء إلى وحدات أصغر مثل: تفرع الإسناد إلى مسند ومسند إليه وفضلة، مثل: (جملة ركن الإسناد + ركن التكملة)، ثم التعويض عن تلك الوحدات برموز إلى أن يتم توليد الجمل، ينظر الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية) : د.ميشال زكريا، ص 146.
- 28- ينظر الألسنية التوليدية والتحويلية وقواعد اللغة العربية (النظرية الألسنية): د.ميشال زكريا، ص 146.
- 29- ينظر المرجع نفسه ص 152-153.
- 30- ينظر الوضع الإستمولوجي للسانيات: صالح الكشو، مجلة المعرفة، عدد 266 أبريل 1984م، ص 18.
- 31- تشومسكي والثورة اللغوية: جون سيرل، مجلة الفكر العربي، العددان 8-9، مارس 1979م، ص 128.
- 32- ينظر أضواء على الدراسات اللغوية المعاصرة: د.ناف خرما، د.ط، سنة 1978م، عالم المعرفة - الكويت- ص 118.
- 33- ينظر النحو والدلالة: د. محمد حماسة عبد اللطيف، ص 25.